HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة
معامل التأثير العربي للعام 2020م = 0.44

عنوان البحث

سردية النشأة والسقوط في ليون الإفريقي لأمين معلوف

د. عثماني الميلود

[1] المغرب

بريد الكتروني: atmani50@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2021/04/01م تاريخ القبول: 2021/03/11م

المستخلص

تعدّ روايةٌ "ليون الإفريقي" لأمين معلوف واحدة من أهم المدونات السردية العربية المعاصرة، وبيئة خصبة لتفاعل الماضي والحاضر، ودائرة لتنامي فعل التذكر وفعل الكتابة التي تمتح من أكثر من مصدر، وتتوخى بلوغ أكثر من هدف.

هدفنا من هذه المقالة الوقوف عند المسار الحكائيّ والوجودي لحسن، بطل الرواية، من غرناطة مرورا بفاس والقاهرة وروما والقسطنطينية، واستخلاص ضوابط هذه المسارات الحكائية والأنطلوجية والثقافية، بغرض إبراز التحام الذاكرة الفردية والذاكرة الجمعية لمواجهة سلسلة من الاختبارات والمحن.

في رواية "ليون الإفريقي" فكرتان كونيتان تتمخضان عن قصة الأصل البشري؛ فكرة الرحيل التي لا رجعة فيها، وفكرة ضياع الفردوس المفقود (جنة عدن)، مما يعني أن الذاكرة الجمعية، موضوع الرواية، تدبرها بنية الحكاية وتنضدها الصور والتيمات.

الكلمات المفتاحية: السرديات، الذاكرة الفردية، الذاكرة الجمعية، الذكريات، المكان، التاريخ.

RESEARCH ARTICLE

NARRATIVE OF ESTABLISHMENT AND FALL IN NOVEL OF AFRICAN LYON BY AMIN MAALOUF

Dr. Miloud Atmani

[1] Morocco
Email: atmani50@yahoo.fr

Published at 01/04/2021 **Accepted at 04/03/2021**

Abstract

Amin Maalouf's novel "Leon the African" is one of the most important Arabic loaned narrative registers, a fertile environment for the interaction of past and present, and a circle for the growth of the act of remembrance and the act of writing that draws inspiration from more than one source and aims to achieve more than one goal.

Our objective in this article is to focus on the narrative and existential path of Hassan, the protagonist of the novel, from Granada to Fez, Cairo, Rome and Constantinople, and to extract rules from these narrative, ontological and cultural paths, in the purpose of highlighting the fusion of individual memory and collective memory to face a series of trials and tribulations.

In the novel "Leon the African", two cosmic ideas emerge from the history of human origin: The idea of irreversible departure, and the idea of losing Paradise Lost (the Garden of Eden), which means that the collective memory, subject of the novel, is managed by the structure of the narrative and the images and themes are stacked.

1- بناء حكاية حسن

تحكي الشخصية الرئيسة، حسن الوزان، ذكريات ابنه. كان عمرُ حسن أربعين سنة قادته أسفاره على متن ظهر سفينة إلى إفريقيا. استهل حكايته بوصف أحوال غرناطة قبل ميلاده. تعرض حسن لوصف نفي عائلته وبقية المسلمين، ثم استحضر أهم الأحداث المزلزلة التي شاهدها إبان أسفاره إلى إفريقيا وأوروبا.

في مستهل الرواية، عبَّر حسن عن نيته تقسيم الفضائل الحميدة التي اكتسبها، خلال مسيرته الحياتية وفق معياري الربح والخسارة. نبه حسن قارئه إلى أن حكايته لن تكتفي بعرض مغامراته خلال العالم فقط، بل ستعدد تجاربه بهدف قياس ربحه الإنساني. كما أفصحت الحكاية عن النية في تتبع مسارين إثنين:

- إرساء صورة لأهم الأحداث الماضية؛
- تبيان الكيفية التي يجابه بها الفرد تلك الأحداث.

شيدت ذاكرة حسن حول مجموعة من الذكريات في أربع مدن، وكل مدينة كانت بمثابة مسرح لعدد محدد من الأحداث الدينية والسياسية التي طبعته، زيادة على أن كل مدينة شكلت مرحلة هامة في نمو طبع من طباع حسن. وقد أسند حسن لكل مدينة من المدن الأربع (غرناطة، فاس، القاهرة، روما) شعورا بعينه (البراءة، التوجس، الصبابة والحكمة). كما ذكر حسن عنصرا معينا ربطه بواحدة من المدن المشار إليها (حدثا مؤلما (نكبة[1] أو فاجعة) بما في ذلك سقوط غرناطة، نيران تمبكتو، الاجتياح التركي للقاهرة وحقيبة روما.

قبل أن نشرع في تحليل حكاية حسن، يتوجب علينا العودة إلى علاقة الذاكرة بالمكان. فمنذ ألفي سنة طرح الفكر القديم قضية القرابة بين الإثنين. من ذلك، نجد أن الإغريق استحدثوا تقنية سموها فن الاستذكار، تقوم على تقوية الذاكرة بنسج روابط بين الأمكنة والصور[2]. تستعين هذه التقنية بالهندسة المعمارية المعاصرة باعتبارها مكانا للذاكرة والصور التي تحيل على صور أخرى. وكلها تفاصيل يجدها الفرد في العمارة التي يقيم بها ويتذكرها عن ظهر قلب. بإمكان أي فرد، إذا ما وظف هذه التقنية، أن يحتفظ بعدد هائل من الصور ويربطها بأفكار ومشاعر وصور. إن الذاكرة والمكان والإحساس هي أمور مترابطة ترابطا شديدا، وإن استدعاء المكان، معناه منح الصور والمشاعر والأحاسيس وجودا. وقد لاحظ بيير نورا في كتابه "أماكن الذاكرة"(1984)[3] أن الصلة بين الذاكرة والمكان قد طبعا بالتغير الجذري؛ فالذاكرة المستمرة المكونة من الطقوس والأشياء التي تحفظها الكنيسة والعائلة والمدرسة لم يعد لها من وجود[4]. ذاكرة الماضي والإحساس بالاستمرار بين الماضي والحاضر توجد الآن في الأماكن، وفي الوثائق على وجه

---

[1] أمين معلوف (1997)، ليون الإفريقي، ترجمة عفيف دمشقية، دار الفارابي، بيروت، لبنان.

[2] Frances, A. Yates (1966), The Art of memory ; London Routledge and Kegan Paul

كما يمكن العودة الى دراسة زوهير سوكاح لمعرفة سياقات نشأة مفهوم الذاكرة الجمعية وتشكله وتحليه بالطابع الإشكالي:

زوهير، سوكاح(2020)،" حقل دراسات الذاكرة في العلوم الإنسانية والاجتماعية: حضور غربي وقصور عربي"، مجلة **أسطور**، العدد11(كانون الثاني/يناير)، ومدلول الهوية بين الكتابة التاريخية والذاكرة الجمعية في دراسته:

زهير، سوكاح (1998)،" الهوية بين الكتابة التاريخية والذاكرة الجمعية نحو نموذج ذاكراتي فلسطيني"، مجلة رؤى تربوية، العدد 27.

[3] Pierre Nora (c1984, c1986), Les lieux de mémoire, 4 Vols, Paris.

[4] – ندوة التاريخ والذاكرة (2001)، منشورة في العدد 01، مجلة البحث التاريخي، 2003.

– عبد الأحد السبتي (2012)، التاريخ والذاكرة، أوراش في تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب.

– محمد حبيدة (2015)، بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب.

الخصوص. نحن الآن، حسب بيير نورا، نعاين شروق شمس "مجتمعات–الذاكرة" التي تنقل الطقوس والذاكرات والتقاليد. وقد اعتقد نورا أنه من المفيد تمييز الذاكرة من التاريخ[5]، فالذاكرة تمثل رابطا معيشا وحاضرا على الدوام، بينما يشير التاريخ إلى فعل بناء الماضي. ونجد لدى نورا قناعة راسخة بأن المجتمع الفرنسي مثلا، قد أضاع صلاته بالماضي، وأن أماكن الذاكرة (البقايا) هي التي تتكفل، الآن، بنقل الإحساس بالاستمرارية. وبتعبير مختلف، فإن الذاكرة توقفت، وتتوفر مجتمعاتنا الحالية على أمكنة تذكرها بالماضي بدل الذاكرة الحية.

شيدت حكاية حسن على أساس فكرة بيير نورا القائلة بأن المكان يُبلغ معنى الماضي في الوقت الذي يحدث روابط ما بين الحاضر والأحداث التي مضت. يحاول حسن تقريب حياته من أربع مدن بالإضافة إلى الأحداث المصيرية التي حصلت إبان إقامته[6]. وقد أشرنا أعلاه إلى رابطين متصلين يوجدان بين الذاكرة والمكان والإحساس. كما أشرنا أيضا، في ليون الإفريقي، إلى أن المدن الأربع (غرناطة، فاس، القاهرة، روما) تمثل الأماكن الحاسمة في بناء الذاكرة، فحَوْل هذه المدن يباشر حسن بناء أعظم أحداث التاريخ وتقييم آثارها على جماعته.

2– كتاب غرناطة

تنقسم حكاية حسن إلى أربعة أجزاء أو كتب. يحكي الجزء الأول حدث ميلاد البطل بموازاة سقوط غرناطة. هذا الجزء الأول بكامله هو عبارة عن مقدمة لحكاية حسن الذي يبدأ مع الكتاب الثاني؛ كتاب فاس. يضطلع الكتاب الأول، على الصعيد الشكلي، بمهمتين اثنتين؛ ففي المهمة الأولى، يستدعي السارد الأحداث المتعلقة بالعائلة الملكية، أحداث يستدعيها لاحقا، حينما يحتاج إلى رسم ملامح شخصية البطل وأبيه، لأن غايته، من ذلك، هي إقامة تواز بين العائلة التي تحكم وعائلة البطل. وفي المهمة الثانية، فإن هذه المقدمة تتحول إلى فرصة لسارد عالم موكل له دور نقل حكاية سقوط ملك العرب ونفيهم، إلى الأجيال المستقبلية. ونظرا لكون كتاب غرناطة يهيّء لدور البطل في الحكاية، فإنه يستحق منا وقفة وازنة: فلماذا خصص السارد الكتاب الأول، أي ربع الرواية، للأحداث التي سبقت سقوط نظام بني الأحمر(النصريون)؟ ما الذي نفيده من هذه الاستراتيجية السردية الخاصة المتبعة في الكتاب الأول بخصوص اشتغال الذاكرة الجماعية؟

2–1–تشابه شخصيتي السلطان والأب:

إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الوقائع التاريخية المعروفة إبان حكم بني الأحمر، خلال القرن الخامس عشرة، فإننا نصادف علامات الخلاف والدسائس. فما قام به أبو آخر السلاطين (أبو الحسن علي) من أفعال هيأت ظروفا وملابسات جعلت العائلة المالكة تتآمر على نفسها، بالرغم من ازدراء العامة والخاصة. وبالفعل، بدأت بوادر سقوط ملك النصريين حينما اقترن أبو الحسن بمسيحية، واعتقل ابنه أبو عبد الله، وهو الابن الأول من زوجته الأولى. اهتم أبو الحسن اهتماما كبيرا بزوجته المسيحية، وأهمل أمور مملكته غير مبال بالأخطار المحدقة به وبعامة رعيته، هذا في الوقت الذي شرعت الجيوش القوية للملوك المسيحيين الثلاثة في تهديد البلاد والعباد.

وأمام الهجرة الجماعية للعرب إلى إفريقيا، وجد أبو عبد الله نفسه عاجزا عن المواجهة. إن غرام السلطان وانجذابه الشديد إلى مسيحية وترك العامة لحالهم، في مواجهة المجهول، هو ما وضع بين يدي أمين معلوف العناصر المتجانسة لإنشاء حكاية أزمة

– عبد العزيز الطاهري (2017) ، الذاكرة والتاريخ : المغرب خلال الفترة الاستعمارية (1912–1956) ، دار أبي رقراق، ط1، الرباط، المغرب.

[5] يشير هالبواكس في كتابه "الذاكرة الجمعية" إلى ما يلي:" لذلك يمكن لنا ربط مختلف مراحل حياتنا بالأحداث الوطنية، ص.40

[6] نفسه

متعددة الصيغ. وانطلاقا من هذه العناصر شيد السارد شخصية أبي الحسن. ونفس الصنيع قام به محمد أبو حسن الوزان؛ فقد وقع في غرام مسيحية ونسيَ أمور أسرته تماما.

هذا القياس بين قائد شعب وأب عائلة أتاح لأمين معلوف إرساء تصور عن شخصية المستبد الضعيف. وهكذا رسم صورة لشعب في طريقه إلى الضياع، له أوصافُ نفسيَّةِ شابٍّ فَقَدَ أباه. يقوم كتاب غرناطة على إجراء مقارنة بين ملك وأب، وكلاهما وقع في حب امرأة مسيحية. هذه التوأمة بين رجلي سلطة ضعيفين تستلهم أساطير الماضي، حيث يتكرر سؤال استقلال الملك والشعب والأرض، ولهذا ستكون روابط لملك بالشعب في صلب تحليلنا.

تمثل هذه التيمة موضوع دراسة س. ج. فريزر، في مؤلفه " الغصن الذهبي"[7] الذي يركز فيه المؤلف على العلاقة الوطيدة بين الثراء وخصوبة الأرض وصحة الملك وخصوبته. إن أساطير الماضي وحكاياته تعلمنا، كما لاحظ ذلك فريزر، أنه متى شرعت سلطات الملك في الانهيار، تقاطرت المصائب على الناس والأرض. إن فرضية وجود علاقة سببية ما بين سقوط الملك وانخفاض قيمة الأرض، هو ما حفز جيسّي، ل. ويسطون في كتابها" من الطقوسي إلى الروائي"[8] على تحليل العلاقة بين الطرفين. تَخلصُ الباحثة، في مؤلفها، إثر تحليلها للعديد من محكيات سانت غرال (Saint-Graal)، إلى العثور على أمثلة دالة على العلاقة بين الملك والأرض. وخلصت إلى أن موضوعة ضعف الملك، المرتبطة بالأرض التي تصير قفرا، تضطلع بدور بناء وأولي في المحكيات المعيارية للعصر الوسيط.

1-2-النفي من جنة عدن

إذا ما أجرينا مقارنة بين الحكايتين المتوازيتين، في كتاب غرناطة، أي بين حياة السلطان، في مملكته، وحياة محمد، داخل عائلته، سنفهم كثيرا عمق الروابط الحاصلة بين القائد والذين يفترض أنه يرعاهم. في كتاب غرناطة توجد بنية سردية ذات مراحل ثلاث، تذكرنا بحكاية النفي من جنة عدن. ومن الجدير ذكره أن حكاية نفي آدم وحواء تجد لها نفس الوصف في الكتب المقدسة لليهود والنصارى والمسلمين، مما يكون جزءا من الأساطير الكونية للديانات الثلاث.

مبدئيا، ثمة مرحلة البراءة، تليها مرحلة العقاب، وأخيرا مرحلة النفي. ومن خلال هذه المراحل ينسج أمين معلوف سدى الدراما التي تجري بين الملك والأرض، الأب وعائلته.

1-2-2-مرحلة البراءة:

تصف المرحلة الأولى من الحكاية، بطريقة موجزة، فترة البراءة، الفترة التي كانت فيها جميع مكونات المجتمع الغرناطي (المسلمون، اليهود، المسيحيون) يعيشون في حالة من التناغم والانسجام مع بعضها البعض ومع الآخرين. فخلال ثمانية قرون من الاستقرار السياسي النمو الذي عاشته الثقافة العربية، كان السلطان يحمي رعيته فكانت تحبه كما لو كان إلها. ونجد البطل، في الفترة نفسها، يعيش السكينة والاستقرار على مدى الخمس سنوات الأولى في غرناطة: "...وما زلت أعيش طهري وبراءتي في غرناطة"[9].كانت عائلة البطل تعيش التضامن والاستقرار، وكان البطل يجد الدعم والمساندة من لدن أبيه محمد.

---

[7] فريزر، س. جيمس (1998)، الغصن الذهبي، دراسة في السحر والدين، ترجمة أحمد أبو زيد، ط2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر.

[8] Jessie L. Weston (1957), From Ritual to Romance, N.Y ; Doubleday Ancha, voir Chapitre 2, « The Task of the Hero », pp. 12-24

حيث موت الملك يجر الويلات على الأرض.

[9] ليون الإفريقي، ص.9

2-2-2-الخيانة والعقاب:

يبدأ الجزء الثاني من حكاية سقوط دولة النصريين، مع نهاية القرن الخامس عشرة، إبان اقتران السلطان أبو الحسن بالمرأة المسيحية. وكان من ثمرات هذا الزواج ابنان اثنان ما لبثا أن تحولا إلى الأخوين العدوين، وكان أبو عبد الله الابن الأكبر من زواجه الأول. وقد تميزت الظروف بصراع شرس، على العرش، بين زوجتي السلطان. وبينما كان السلطان أبو عبد الله غارقا في ملذات الدنيا، تعددت الدسائس وشاعت؛ إذ اشتعلت الحرب الأهلية، بينما كانت الجيوش المسيحية تتحالف فيما بينها كي تهاجم عرب إسبانيا.

وأمام عجز وضعف السلطان، والذي لم يكن "راغبا لا في المدافع ولا في الشهادة"[10] فقد نظم مع المنتصرين المسيحيين أمر هروبه ومنفاه. كان عم حسن شاهدا على خيانة السلطان، وهو من سيروي، بالتفصيل، ما وقع في منفى محمد وحسن، ذكرياته عن خيانة السلطان وضعفه:

" ولسوف تظل تطالعني تلك الابتسامة البغيضة، ابتسامة الضعة، ما دمت حيا."[11]

وباستسلام أبي عبد الله أمام المسيحيين، يكون قد تفادى الحرب والمذابح، ولكن أسوأ ما في ذلك تركه شعبه لمصيره في مواجهة الاجتياح المسيحيّ. سجل خال حسن ما وقع من أحداث، وغياب الوازع الأخلاقي لدى القائد، وتوقع نوع العقوبة التي تتربص بالجميع، في الطريق إلى منفى المسلمين:

"وما كان تصرف أبي عبد الله ليفاجئني. فلم أكن أجهل طيش صاحب "الحمراء" ولا ضعف طبعه، ولا حتى علاقاته المشبوهة بالقشتاليين. وكنت أعرف الفساد في أمرائنا وأعلم انهم لم يكونوا قطّ يفكرون في الذود عن المملكة، وأن المنفى لن يلبث أن يكتب على شعبنا. ولكن كان علي أن أرى بأم عيني آخر سلاطين الأندلس وقد انزاح عن قلبه كل حجاب لأشعر بأني مرغم على الثورة. (والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء)"[12].

وثمة سيناريو مشابه لخيانة محمد لعائلته؛ فقد خلف صراع زوجاته هوة داخل العائلة، فبعد ميلاد بنت وردة المسيحية (مريم)، أصبحت العلاقات بين سلمى، ام البطل، ووردة في أسوأ حالاتها.

بعد ثلاث سنوات على سقوط غرناطة، بدأت مظاهر اضطهاد اليهود والمسلمين تعمُّ أكثر من ذي قبل، لوحظ تردد محمد بين صبابته بوردة ووفائه لأخلاق المسلمين؛ فقد رفض محمد، بطريقة مذلة أمام أخ وردة، المعمودية المسيحية، والتي كانت شرطا للزواج من رومية. وفي هذه اللحظة بالذات سقطت غرناطة بين أيدي الأعداء كما روت ذلك سلمى أم حسن. رفض محمد مغادرة إسبانيا دون وردة، ووجدت العائلة نفسها في وضع لا تحسد عليه أمام عجز محمد عن اتخاذ القرار الصائب. إن محمد شأنه شأن أبو عبد الله عاجز عن حل المشكلات التي تواجهه، مما اضطره، في آخر المطاف، إلى ترك بلده على عجل.

3-2-2-المنفى:

يستعرض الجزء الثالث من الحكاية، الذي يطابق تماما لحظة نفي أبي عبد الله من جنة عدن، هجرة أبي عبد الله إلى فاس حيث جُرِّد من سلطاته ومملكاته. وهناك عاش دون أي وضع اعتباري[13]، لكنه سيعيش في أتون معاناة لا حدود لها إلى أن وافته المنية.

---

[10]ليون الإفريقي، ص.43

[11] ليون الإفريقي، ص.30

[12] ليون الإفريقي، ص.31.

[13]كانت نهاية أبي عبد الله مختلفة عن أسطورة فريزر، حيث يقتُلُ الشعب ملكه حينما يبدي ضعفا أو يهرم أو يمرض:

أما محمد فقد سهل لأسرته أمر انتقالها إلى فاس، بما في ذلك زوجته الرومية وردة. ونظرا للإهانة التي سببها لصهره، فقد طلَّق زوجته سلمى وقرر أن يقيم صحبة وردة. ومنذ ذلك الوقت عاش محمد عاجزا وذليلا، واقعا تحت نير الحنين الجارف. وفيما يلي نجد حسن يصف عذابات أبيه:

"وكانت تلكما العينان الغائبتان، وذلك الصوت المستعار، وذيّالك الانجذاب إلى بلد "الروم"، وتلك الهواجس التي تجعله يتصرّف خلافا لكلّ حكمة، تدع المجال للافتراض بأن محمدا كان تحت سلطان سحرٍ ما"[14].

وبعد مرور عشر سنوات، ما يزال ذهن محمد مشوشا، حالما وحائرا، وهو يستعيد المحنة الخانقة لأسرته وقومه.

إذا ما فسدت صلات الملك بالأرض والرعية، يترك الناس لحالهم الغامض. وهكذا، نجد في حكاية حسن، حينما فقد السلطان قوته، فإن الرعية وجدت نفسها في وضع مشابهٍ متروكة لحالها، تحت رحمة الآخرين. وهنا ندرك مدى الفداحة التي تلحق بالناس وهم يشاهدون قائدهم الروحي والرجل القوي، يقطع صلاته المقدسة ويغادر بلده ورعيته في الأرض التي عاش الجميع فيها في أمن وأمان منذ ثمانية قرون. وهذا ما حصل لأسرة حسن، فقد فقدت ائدها وأرضها، وكان من الضروري أن يهرب محمد كي يبقى على قيد الحياة.

إن وجود تماثل بين حكاية النفي من جنة عدن، وكذا التلميح إلى حكايات الأصول (المسلمون، اليهود، النصارى) كلها تؤكد الحمولة الملحمية لطرد حسن وأسرته ومسلمي إسبانيا. إن مصير الفرد متشابك بمصير جماعته.

3- نقل حكاية السقوط

سنسعى، الآن، إلى استكشاف الجزء الثاني من كتاب غرناطة، أي معرفة نقل الذكريات الأليمة لسقوط غرناطة واللجوء إلى إفريقيا. وهنا سيضطر السارد إلى عرض معاني الإهانة والبؤس التي عانتها الأجيال اللاحقة في منفاها، فالسارد هو وديعة للذاكرة الجماعية.

3-1--دور ابن حسن

تغطي حكاية حسن ثلاثة أجيال، فحسن يذكرنا بالحوارات التي جرت بينه وبين أبيه وأمه إبان شبابه ومراهقته في إفريقيا، مجمعا كل تلك الحكايات وحكاية خاله في النسخة التي كتبها لابنه. لم يفتأ حسن يذكرنا بابنه المدعو جوسيب الذي قرر أن يترك له هذه الذكريات. وقد تكلم حسن لابنه خمس مرات مع بداية كل كتاب ونهاية الكتابين الرابع والأخير.

3-2- حكاية سقوط غرناطة

تمتد حكاية حسن على مستويين إثنين؛ فمن جهة أولى، تتولى الحكاية عدَّ الأحداث المذكورة في النصوص التاريخية، شأن السيل الأعظم الذي ضرب غرناطة سنة 1478 والحرب الأهلية وهزيمة أبي عبد الله وإعادة اجتياح غرناطة على يد إيزابيلا وفرديناند سنة 1492[15]. كما تبلغنا الحكاية، من جهة أخرى، مختلف ردود الفعل الناجمة عن خيانة السلطان ونفي مسلمي إسبانيا.

فريرز، الفصل XXIV، "مقتل الإله الملك"

[14] ليون الإفريقي، ص.100

[15] عبد الله جمال الدين (1996)، تاريخ المسلمين في الأندلس، شركة سفير، القاهرة، مصر.

محمد عبد الله عنان (1987)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

عبد الرحمن علي حجي (1983)، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.

وبفضل حكاية العائلة، ورث حسن صورة فاتنة عن مدينة غرناطة، في حين كشفت حكاية الأب عن الغنى الثقافي والعلمي اللذين ميّزا غرناطة حوالي القرن الحادي عشر؛ فقد كانت الحمراء، في هذه الفترة، مدينة جذابة، ترفل في انتصار بعد آخر، وتتقلب من أعجوبة إلى أخرى[16]، شاهدة على نشاط ثقافي وعلمي بارز ومثير للإعجاب[17]. ولكنه مع اشتداد الهجومات الإفرنجية[18] على الأراضي المقدسة، خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشرة ضعفت ثقافة غرناطة وفكرها. وخلال القرنين الخامس عشرة شهدت المدينة عظمة الثقافة العربية. يشير محمد إلى التقابل الحاصل بين المجتمع الإسلامي، خلال القرن الثاني عشر، والأزمة التي عاشتها عشية سقوط غرناطة سنة 1492، كما توقف كثيرا عند التهديد المزدوج الذي كان على كاهل سكان الحمراء سنة 1490؛ الحرب ضد "الكفار"(المسيحيون) والحرب الأهلية. ونظرا لانتشار الجوع في المجتمع الغرناطي، فقد انفرط عقدهم إلى فريقين: المتدينون، من جهة أولى، وعلى رأسهم "استغفر الله" الذي كان يدعو بالوبال والانتقام الإلهيين من كل المذنبين الضالين الخارجين عن حدود الشرع. ومن جهة أخرى، نجد الأطراف المعتدلة (المعتدلون)، وكان الناطق باسمهم أبو عمر الذي كان يجادل ضد الطريقة الصارمة في الضغط على الناس لأن "السكوت والخوف والانضباط"[19] قد غشت عقول المسلمين. فأبو عمر الذي كان يثير حفيظة الشيخ استغفر الله، كان يرفض إظهار معاني الخضوع والاستسلام قدام الملوك المسيحيين. وفي اللحظة الأخيرة، علق كل آماله على مدفع تم الاستيلاء عليه من الجنود المسيحيين، والذي كان يرجو أن يصدَّ به العدو. تأثر حسن بهذه الحكاية والصراعات التي تولدت عنها، مما تسبب في انقسام مكونات المجتمع الغرناطي إلى فريقين متناقضين ليس من الممكن إحداث تفاهم بينهما. لهذا لا يجب أن نقلل من أهمية الصراع بين دعاة الحكمة ودعاة الشريعة. تشكل هذه الحالة، بالنسبة لأمين معلوف، ثابتا بنيويا في العالم العربي، حيث سجل في خاتمة "الحروب الصليبية كما رآها العرب"، ما يلي:

"فالعالم الإسلامي المطوق من كل صوب انغلق على نفسه، وأصبح يرتعش بردًا لكل نسمة ويحاول الدفاع عن نفسه، وانعدم فيه التسامح، وغدا عقيما، وتكثر المواقف المستفحلة في الوقت الذي تتتابع فيه دورة الكوكب التطورية التي يشعر إزاءها بأنه على الهامش. وبات التقدم هو الطرف الآخر، والحداثة هي الطرف الآخر. أفكان عليه تثبيت هويته الثقافية والدينية برفض هذه الحداثة التي يمثلها الغرب؟ أم كان عليه بالعكس من ذلك السير بعزم على درب الحداثة مخاطرا بفقد هويته؟ لم تنجح إيران ولا تركيا ولا العالم العربي في إيجاد حل لهذا المأزق؛ وهذا هو السبب في أننا لا نزال نشهد ترجّحا كثيرا ما يكون عنيفا بين مراحل من التغرب الاضطراري وأخرى من الأصولية المفرطة الشديدة الكراهية للأجنبي."[20]

يشير أمين معلوف، في كتاب غرناطة، إلى أن الجدل الحالي، في العالم الإسلامي، بين الدين والتقدم والهوية، له جذور في النقاشات والمناظرات غير المحسومة، والتي أثارت غيظ الجميع، خلال القرن الخامس عشرة[21].

Jean Descoles (1970), Les Grandes heures de l'Espagne, Paris, Chapitre IX, « L'Heure musulmane », pp.67-84, Chapitre VI, « L'Heure triomphale », pp.107-121

[16] ليون الإفريقي، صص.45-46

[17] نفسه، ص.45

[18] يوظف أمين معلوف كلمة "الإفرنج" ليعني بها الأوروبيين، بعامة، والفرنسيين، بخاصة، في مؤلفه:

- أمين معلوف (1998)، الحروب الصليبية كما رآها العرب، ترجمة عفيف دمشقية، دار الفارابي-بيروت-لبنان، ط2، ص.09.

[19] ليون الإفريقي، ص.45-46

[20] الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص.327

[21] يعلق أمين معلوف على حالة الانقسامات في العالم العربي قائلا:

3-3- الذاكرة العاطفية:

أوضحنا فيما سبق إلى أن حكاية نفي مسلمي غرناطة تتوازى مع نفي آدم وحواء من جنة عدن. وحكاية نفي المسلمين تزخر بنفس مشاعر الإهانة والألم، تماما كما هو وارد في النصوص المقدسة للديانات الكتابية الثلاثة.

فمن خلال حكاية السلطان الذي ضيع ملكه وترك أهله، يروي أمين معلوف حكاية القدر الذي طوَلَ مسلمي إسبانيا ولم يستثن رأسا. يتصل الأمر بسقوط الإنسان الأعلى، كما يتصل بسقوط الفرد. لهذا سعى معلوف إلى إعادة تركيب قصة هذه الأحداث بوضع الحياة العاطفية للبطل في الواجهة.

إن الذكريات التي جمعها حسن، تركز على المأساة الكبرى التي صار كل فرد من الجماعة، ضحية من ضحاياها، حيث يشعر كل واحد بالعجز الذي يكبل الجماعة.

في بداية الأمر، اكتسب حسن الإحساس بأجواء الخوف واللايقين التي انتشرت منذ ميلاده؛ فمنذ السيل الأعظم، اشتكت أمه سلمى قائلة:

"وكان ذلك جزاء وفاقا لجرائم غرناطة. فقد أراد الله أن يظهر قدرته على ما بعدلها من قدرات، وأن يعاقب صلف الحكام وفسادهم وجورهم وانحلالهم. وسعى إلى تحذيرنا مما سينزل بنا إذا ظللنا سادرين في الغي، ولكنّ العيون والقلوب بقيت مغلقة"[22].

وقد مكثت سلمى، على شاكلة بقية الغرناطيات، راسخة الاعتقاد بأن زواج السلطان بالمرأة المسيحية، كان الواقعة السيئة في الحياة الفاسدة لسيد الحمراء[23]، إذ لم يكتف بالغرق في الملذات وإهمال شؤون المملكة، بل" أتاح للمقربين منه جمع ثروات حقيقية عن طريق الضرائب غير المشروعة ومصادرة الأملاك. أما جنوده الذين لم يكونوا يقبضون رواتبهم فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى بيع ثيابهم ومطاياهم وأسلحتهم لإطعام عائلاتهم."[24]

ولهذا السبب عاقب الله أمته. إن مصير ناس غرناطة، بالنسبة لسلمى، يرتبط ارتباطا وثيقا بمصير السلطان. وتشكلت لديها قناعة بأن الشعب يعاني العواقب المدمرة لغضب السماء على خطايا السلطان أبي الحسن بن علي النصري.

وبموازاة احتدام الأزمة السياسية، فإن العلاقة بين والدي حسن تدهورت بشكل ملحوظ. صارت شديدة القلق بخصوص منزلة الزوجة الثانية، في حياة زوجها محمد. وفي الوقت نفسه، اشتدت الخصومات واستعرت إلى أن تحولت إلى حرب أهلية "ساحقة ماحقة هي

" في العالم العربي، في العالم الإسلامي، لدينا دائمًا قطبان أدعوهما من أجل التبسيط، القطب الخميني وقطب الشاه، أي أن شاه إيران أراد اللحاق بإيطاليا في فضاء خمسة عشر عاما، وأراد الخميني العودة إلى تقاليد القرنين السابع والثامن. لم ننجح أبدًا في حل هذه المشكلة، فنحن دائمًا منقسمون. لم ننجح أبدًا في التحديث دون أن نفقد هويتنا، وفشلنا في كلا الأمرين".

Jocelyn Doray and Julian Samuel (1993), The Raft of the Medusa, Montréal : Black Rose Books, p.65

[22] ليون الإفريقي، ص.23.

[23]"وهكذا انصرف إلى الملذات على الرغم من تحذيرات طبيبه إسحاق حمون المتكررة، فاستبطن الجواري الجميلات وأحاط نفسه بالشعراء المجان، شعراء كانوا يصفون في بيت تلو بيت آخر مفاتن الراقصات العاريات والغلمان ذوي القدود الرشيقة، ويشبهون الحشيش بالزمرد ورائحته بالبخور.."

ليون الإفريقي، ص.25.

" وكانت [سلمى] تقول: " يروى أن السلطان جمع ذات صباح أفراد حاشيته في ساحة" الريحان" ليشاهدوا هذه الرومية وهي تستحم" [...]. وإذ انتهت عملية الاستحمام فقد دعا الأمير كل واحد إلى شرب طاس من الماء الذي خرجت ثريا منه، وهللوا جميعا، نثرا وشعرا، للطعم الزكي الذي اكتسبه ذلك السائل."، ليون الإفريقي، ص. 24

[24]ليون الإفريقي، ص.25.

النصيب المكتوب للماليك السائرة على طريق الاندثار"[25]. أما بالنسبة لوالدي حسن، فإن العذاب والبؤس سيتواصلان طويلا على إثر استسلام أبي عبد الله للجيوش المسيحية. محمد المفكر، والذي كان متوترا، مشرفا على الجنون، أضاع منصبه بمحكمة غرناطة. وبعد ثلاث سنوات، نفي إلى إفريقيا، فعاش ذليلا، معوزا وعاجزا مهانا. لهذا صار حسن متيقنا بأن أزمة المجتمع الغرناطي هي نفسها أزمة عائلته، ما دام أن صدى كل أزمة من أزمات هذا المجتمع كانت تصله من خلال حديث والديه.

4- الذاكرة الجمعية[26]:

يعرض كتاب غرناطة أحداث الماضي العربي من خلال مصفاة ذكريات الشخصيات الرئيسية (حسن مثالا)، التي ورثتها عن والديها، لهذا نلاحظ أن حكاية هذه المغامرات الخالصة لا تنمو إلا في تربة الحكايات السالفة. فمن خلال هذه الحكايات حيث يُسلط الضوءُ على هروب العائلة وغياب الأب. إن حكاية الخمس سنوات من حياة حسن قائمة، بشكل كلي، على محكيات العائلة حيث تفيض ذكريات الثقافة والمجتمع المفقودين. إن الفرد، حسب السوسيولوجي موريس هالبواكس، هو من ينقل ذكريات العائلة، وهو من لا يقوم بذلك إلا باعتباره عضوا في مجموعة[27].

تتضمن ذكريات حسن صورا للألم والعار والإحساس بضياع الهوية التي يشكو منها المجتمع المسلم في المنفى. مثل هذه الذكريات التي حظيت بنصيب الأسد، في العديد من الحكايات، مما صانها من النسيان والزوال، فبقيت تتناقل جيلا إثر جيل. وبهذا لم تكن حكاية حسن مجرد إعادة تركيب للشعب العربي، بل نجدها مترعة بنزعة أخلاقية موجهة لابنه كي تعينه على مواجهة الملمات فيما يأتي من الأيام.[28]

تمكن أمين معلوف، من خلال بناء السيرة الذاتية التخييلية للسنوات الخمس الأولى لحسن، من إحداث تصالح بين ذاكرة فرد القرن الخامس عشرة من منظور تاريخي لكاتب القرن الواحد والعشرين. تبنى الذاكرة، وفق منظور أمين معلوف، على أساس التأويلات التاريخية المنجزة من قبل. لهذا من الأفيد إعادة الروح للنقاشات الكبرى التي جرت في عصر سابق. بإمكان قارئ ليون الإفريقي أن يكتشف المبادئ في كتاب" الحروب الصليبية كما رآها العرب، حيث يكشف المؤلف عن مشروعه القائم على معالجة التاريخ منظورا إليه بكيفية مغايرة. هنا، نجد مجموعة ملاحظات عن الدور المركزي والحيوي للتاريخ في أعماله التخييلية. دور التاريخ أنه يمدُّ الكتابة بمادة أخلاقية تصلح أن تكون عبرا بالنسبة للعالم الحديث:

" حينما نسرد شيئا، فنحن نسهم في إثراء ذاكرة الآخرين. إن سرد القصص جزء لا يتجزأ من نشاطنا اليومي؛ فكل واحد منا يسرد بكيفية أو بأخرى. وبالفعل، هذا ما جعلتُ منه حرفتي وأن سرد التاريخ، كما أراه، هو أن أنقل عددا معينا من المعارف والقيم والمواقف والحساسيات"[29].

---

[25] نفسه، ص.27.

[26] يخلط كثير من الباحثين العرب بين الذاكرة الجماعية (mémoire du groupe) والذاكرة الجمعية (la mémoire collective). والفرق جوهري بين المفهومين؛ فالذاكرة الجماعية خاصة بجماعة وحيدة معينة داخل مجتمع بعينه، أما الذاكرة الجمعية فهي ذاكرة مشتركة بين مختلف الجماعات التي يتكون منها مجتمع محدد. وبتعبير مختلف، فإن الذاكرة الجمعية هي مجموع كل الذاكرات الجماعية.

[27] Maurice Halbwachs (1997), La mémoire collective, Paris, Albin Michel (1ère Edition PUF, 1950).

[28] يؤكد هذا، قول أمين معلوف:" ليون الإفريقي هي قصة منفيٍّ سعى إلى تجاوز محنة منفاه" ضمن:
« Amin Maalouf : autobiographie à deux voix », Entretien avec Egi Volterrrani, p.18(1-13). Consulté le 21 janvier 2021 http://webperso.easyconnect.fr/barrire/maalouf/biographie.html

[29] Rina Jureidini, « Entretien avec Amin Maalouf », La Revue du Liban, 3 Aout 1996, Consulté le 25 Janvier 2021

إن الانصياع لمثل هذه المعالجة الأخلاقية التي لا يمكن النظر إليها إلَّا من زاوية واحدة، تسمح بتوسيع فكرتنا عن الماضي. من الطبيعي، أن كل جيل يسعى جاهدا إلى تجديد تأويل الماضي بالاستعانة بمنظور الأفكار المهيمنة اليوم. وبهذا الصنيع تتبدل الذاكرة الجمعية بشكل مستمر ودائم. واعتمادا على هذه المبادئ، يدقق أمين معلوف في دور التاريخ ووظيفته في ابتكار ذاكرة الجماعة:

"أعدُّ التاريخ، من حيث المبدأ، بوصفه خزانا لا ينضب من الشخصيات والأحداث والأمثال التي يجب اكتشافها مجددا. بطبيعة الحال، نختار من التاريخ ما نحب أن نختار؛ إذ بوسعنا أن نبرهن على أي شيء انطلاقا منه. لا أعتقد أن التاريخ يقدم لنا درسا مطلقا، غير أنه وثيقة مهمة كونه يشكل الذاكرة وجوهر المجتمعات[...]. ليس ثمة تاريخ "موضوعي" بالمعنى الحرفي للكلمة. أعتقد بأن لكل فرد ذاكرة خاصة به تضفي على كل حدث قيمة ليست هي نفسها بالنسبة لقيمة الآخرين"[30].

إن أمين معلوف وهو يستعرض تاريخ سقوط غرناطة ونفي المسلمين، فإنه، في الآن نفسه، يؤول التاريخ العربي القديم من جديد. والهدف من تجديد التأويل أن يعرض أمام أعين العالم المعاصر منظورات جديدة عن الماضي، ملائمة بالنسبة للعالمين الغربي والعربي. ومن خلال سرد السنوات الخمس الأولى لحسن، يرجو معلوف تقديم صورة إيجابية عن التعايش بين المسلمين واليهود والنصارى، من جهة أولى، ويكشف، من جهة ثانية، عن صورة الحضارة الرفيعة التي ضاعت منهم.

ومادامت حكاية النفي، لدى المسلمين، تحمل نفس المعنى الأسطوري للنفي من جنة عدن، فإن ذلك يقربها، بالفعل، من مجموعة حكايات النفي في الكتب المقدسة لدى النصارى واليهود. وباعتماد معلوف، حكاية القيامة التي طبعت الثقافة العربية، يصوغ، في كتاب غرناطة، صورة تعيد النظر في الأفكار الغربية المهيمنة على موضوع الحاضر العربي في أوروبا، يقول أمين معلول معللا تأويله لتاريخ غرناطة:

"من بين الأدوار الأساسية للكتابة أن تحاول تطوير أساطير إيجابية. أستمد من التاريخ المادة الضرورية لإقامة أساطير اللقاء والتصالح. يمنحنا الفردوس المفقود، في نظري، صورة إيجابية عن الروابط القائمة بين ثلاث ديانات توحيدية وصورة بديلة عن العالم العربي"[31].

يتوخى أمين معلوف، من كل ذلك، ابتكار أسطورة إيجابية، تجعل من تاريخ الشقاء الذي رزح تحته أهل غرناطة منذ خمسة قرون خلت، أداة لتقدير هذه الفترة من التاريخ.

5- كتاب فاس: الغم

كل كتاب من الكتب الثلاثة التي تتعلق بحياة حسن، إثر نفيه من غرناطة، بحاجة إلى أن يفحص بمعزل عن بقية الكتب؛ فكل كتاب ينسج روابط خفية بين المدن والمسار الفردي لحسن والأحداث المعاصرة. ونتتبع في تحليلنا لحكاية حسن مسارين إثنين:

- المسار الأول: المصير الفردي لحسن ونضجه الخاص في كل مدينة؛ إذ نجده يربط كل مدينة بشعور خاص؛
- المسار الثاني: تسلسل الأحداث وترابطها واتصالها بحياة حسن والجماعة التي ينتمي إليها.

لقد سبق لنا، أن أكدنا بأن حكاية سقوط غرناطة تقوم على حكاية النفي من جنة عدن. ونلاحظ أن تيمة النفي تتكرر في الكتب

---

http://www.rdl.com.lb/1996/1903/maalouf.htm

[30] نفسه.

[31] « Amin Maalouf : autobiographie à deux voix », Entretien avec Egi Volterrrani, p.18(1-13). Consulté le 21 janvier 2021

http://webperso.easyconnect.fr/barrire/maalouf/biographie.html

الثلاثة التي تلي كتاب غرناطة. في كل كتاب، نجد أن حكاية حسين تشيد وفق ثلاث مراحل. في المرحلة الأولى، يذكرنا حسن بالشعور المهيمن المتصل بهذا الجزء من حياته. وفي المرحلة الثانية، يكشف عن الخديعة التي جعلته في وضعية مزرية. وفي المرحلة الثالثة من حكاية كل كتاب، نجد وصفا لهروب حسن ونفيه. سنقوم بتفحص هذه الكتب الثلاثة، تبعا للنموذج الحكائي القديم، لمعنى النفي، بغرض أن معرفة كيف تمكن حسن من مداراة تجربة النفي.

في تحليلنا لكتاب غرناطة، رسمنا صورة لتطور حكاية حسن. ومن خلال تجميع ذكريات والديه وخاله، رسم حسن لوحة لطفولته باعتبارها خلفية لسقوط غرناطة. في ذلك الوقت لم تكن حياته تتميز كثيرا عن حياة عائلته، لأنه بفضل حكايات أم حسن وأبيه تمكن من رسم صورة لطفولته والمدينة التي ولد بها. فذكرياته مستمدة من ذاكرة العائلة.

لم يكن عمْر حسن قد تجاوز الخامسة حينما اضطرت إلى ترك غرناطة. ومذّاك بنى حسن حكايته الذاتية اعتمادا على تجربته الخاصة في فاس والقاهرة وروما. تمتد الفترة التي وصف فيها حسن حياته، في كتاب فاس، من طفولته إلى مرحلة نضجه؛ أي من 1494 إلى هجرته سنة 1513، وهو في سن الخامسة والعشرين.

إن التوازي الحاصل بين مصير عائلة البطل وجماعته يستمر بنفس الدرجة في فاس. فسقوط الملك ونفي الغرناطيين إلى إفريقيا قد أديا إلى حدوث كوارث عانى الجميع عواقبها؛ فأبو علي عاش في فاس دون أثر يذكر، أما شعبه الذي ترك لحاله تماما، فكان يصارع من أجل البقاء. حصلت الأمور كما لو أن "مآسي الأندلس" أبت إلا أن تلقن عائلة حسن وجماعته ضروبا من المعاناة والبؤس والشقاء. وكان لتجربة المنفى أثر بالغ؛ فقد رفعت من منسوب الشك والحرمان.

يعود حسن إلى هذه المرحلة بإبراز درجة الإحساس بالهلع الذي هيمن على كل ذكرياته. في إفريقيا، بدأت أحوال عائلته بالتمزق؛ فقد رفض خاله استقبال عائلة محمد الذي وصل إلى إفريقيا صحبة زوجته. بعد ذلك، ستتعرض العلاقات بين حسن وأبيه محمد إلى الانفصام. طلق محمد أم حسن(سلمى)[32]، مما اضطر هذا الأخير للإقامة لدى خاله الذي كان يعتبره مثل ولده الخالص. وفي غياب الأب كان على الخال أن يكون معلمه ومرشده، أما محمد فقد صار يتردد على الخمارات، يكثر من شرب الخمر ويخالط المومسات، الشيء الذي أورثه الضعف والهوان ومخالفة الشريعة، ووضع نهاية لدوره بوصفه قائد عائلة.

أدى الانفصال الجسدي بين الأب والابن إلى اشتعال التوترات بين الطرفين وتسميمها. فمن جهة أولى، أضاع محمد حقوقه العائلية لدى زوجته الأولى، ومن جهة ثانية، أضاع الابن أباه إبان شبابه وعاش العمر كارها له، معتبرا إياه وصمة عار على جبين العائلة. فلما جاء محمد إلى بيت الخال مقدما التعازي لموت جدة حسن لأمه، أحسّ هذا الأخير بالهوان والعار من شخص أبيه، لأن هذا الأخير صار يعيش على هامش المجتمع الغرناطي بفاس، دون أن ينال أي اعتراف من لدن الجماعة المنفية[33].

انتهت صلات حسن بأبيه تماما حينما وقع بينهما خلاف بخصوص مريم، أخته من أبيه، التي قرر الأب تزويجها، وهي بنت الثالث عشرة للعجوز الثري وقاطع الطريق المدعو بالزروالي[34]. فهذا الفعل الجشع أقلق حسن وأزعجه كثيرا. وفي سن الرابع عشرة، كشف

---

[32] ليون الإفريقي، ص.108:"وإذ رأى محمد الزجاجة في يد زوجته فقد نعتها بالساحرة والمجنونة والمسممة وصرخ في وجهها ثلاث مرات من غير أن ينتظر طلوع الفجر: "أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق"، مشيرا بذلك إلى أنها أصبحت بعد الآن حرة مطلقة".

[33] " ولم يحضر أبي إلا عند الظهر شارحا بارتباك أنه علم لتوه بالنبأ الأليم. وكان الجميع يحدجونه بنظرات غريبة، ويظنون أن عليهم أن يحيوه ببرودة، أو حتى أن يتجاهلوه. ولقد شعرتُ بأني محطم، ووددت لو لم يكن هنا، ووددت لو لم يكن أبي. وإذ خجلت من أفكاري فقد أقبلت عليه وأسندت رأسي إلى كتفه وبقيتُ بلا حراك. ولكن بينما كان يمرُّ بيده على عنقي شرعت أفكر، من غير أن أدري لماذا، في الوراق المنجم ونبوءته"، ليون الإفريقي، ص.110

[34] " لم يكن أحد يعرف كيف نمت ثروة الزروالي. ويقال إنه قضى السنوات الأربعين الأولى من حياته يجول بماعزه في جبل بين زروال في الريف على بعد ثلاثين ميلا من البحر[...]. ويقال إنها تقع غير بعيد من هناك آبار سرية كان الرومان قد خبأوا فيها كنوزهم قبل أن يغادروا إفريقية. فهل عثر الراعي على أحد

حسن عن غضبه العارم،" إعلان الحرب على الظلم"[35] الذي صار الأب دالا عليه. حاول حسن ثني أبيه عن فكرة تزويج مريم لهذا المجرم. وقد شكك حسن في شرعية أبيه بوصفه قائدا للعائلة كونه صار يتردد على الخمارات. أحسّ الأب بالسوء فقد جرح جرحا عميقا بسبب تلميحات ابنه، مما أفضى إلى انقطاع الصلة بين الطرفين وانتهائها لاحقا. وقد أدى حبس مريم البريئة، في مستعمرة المصابين بالجذام بسبب إحدى دسائس الزرواليّ، إلى غضب حسن وحنقه على أبيه. أما عواقب هذا الخصام بين الابن وأبيه، فلم تتأخر آثارها كثيرا. ورغم أن حسن حافظ على مظاهر الود تجاه أبيه، فإن خاله سيصبح هو القائد الشرعي للعائلة. ولعل ملاحظة هارون، وهو صديق حسن، بأن هذا الأخير قد خرج إثر صراعه مع أبيه كأنه قتله:

" كنت تبدو عندما وصلت مساء أمس وكأنك قتلت أباك كما يقال عندنا"[36]

هو ما يؤكد فكرة الموت الرمزي للأب ومعنى الوليمة الطوطومية لدى فرويد[37]. ولهذا كان مفيدا أن يكون الخال (الذي خطط لنفي المسلمين في كتاب غرناطة) هو من حكى لحسن حقيقة مصير المسلمين، وعرض عليه فكرة العودة إلى إسبانيا لاحقا، إذ لم يكن عمر حسن، إذاك، قد جاوز الثانية عشر. وهكذا عبر عن إرادة قوية وحازمة في ألا يهدم الحلم والأمل في أنفس الأشقياء المساكين في أن يعودوا، يوما ما، إلى أرضهم الأم.

ومن نتائج ذلك، أن حسنا، منذ ميعة شبابه، شرع في الإحساس بكابوس مصير المسلمين، وهو ما منحهُ دور الشاهد على ما جرى لجيله. شهد حسن العديد من أزمات العائلة ومحنها. أما الجماعة التي ينتمي إليها حسن، فذاقت كل أنواع المرارات المتكررة، والتي أفشلت مساعيها للعيش في أمن وأمان في إفريقيا؛ فقد تعرض الغرناطيون للهجومات من كل الجهات. كانت تصلهم الأخبار تباعا عن أوضاع المسلمين واليهود في إسبانيا، حيث تنتزع منهم ممتلكاتهم ويتعرضون للتعذيب والقتل حينما يرفضون الانقلاب إلى العقيدة المسيحية. أغار القشتاليون على المغرب وفرضوا سيطرتهم على بعض المدن، في الوقت الذي صار البرتغاليون يهددون الشواطئ. وهنا سيستشعر الغرناطيون قلقا فظيعا لأنهم صاروا متيقنين بأن "العدو" سيطارهم في قلب بلاد الإسلام وحتى أقاصي الأرض. فلن يعيشوا بسلام في أية نقطة من نقط الكرة الأرضية.

إن القلق الذي طبع مراهقة حسنن في فاس، مأتاه انهيار صلته بأبيه الذي قطع أية صلة بالعائلة. وعلى إثر نفي السلطان وانتقال الجماعة الغرناطية شعر حسن بانفصال كبير؛ فقد عاش قلق طفل معزول داخل شعب مهدد.

سيكون من المفيد، في هذه المرحلة، أن نباشر تحليل مرحلة معاقبة حسن. فبعد أن ورطه سلطان فاس في اغتيال عدوه الزرواليّ، أمره بأن يغادر المدينة لمدة سنتين. ولتفادي السجن الانفرادي، قبل حسن قرار السلطان بارتياح شديد. صار الآن تاجرا ثريا ومتعلما لأنه تمكن من تجاوز مشكلات شبابه ومراهقته: بلغ مبلغ الرجال، وفهم العالم بفضل ما تلقاه من تعليم على يد خاله. لهذا كان من اليسر عليه أن يغادر فاس نظرا لشبابه وتفاؤله. غادر المدينة دون أن يزيد من قلق أمه وعائلته، ودون أن يشعر بالعار أو الشجـى:

"كان خروجي من فاس مشهودا، فقد أصررت على الذهاب إلى المنفى مرفوع الرأس مرتديا الديباج، لا في الليل وإنما في رابعة النهار، وأن أسلك الأزقة الغاصة وورائي قافلة فخمة: مئتا جمل محملة بأنواع البضائع وبعشرين ألف دينار، وهي كنز كان يحميه

تلك المخابئ بالصدفة وهو يرعى قطيعه في أحد الأيام؟ هذا ما كنت قد سمعته مهموسا به في فاس قبل أن يتدخل هذا الزرواليّ في حياتي بكثير."، ليون الإفريقي، ص.114.

[35] ليون الإفريقي، ص.146.

[36] نفسه، ص.151.

[37] سيغموند فرويد (1983)، الطوطم والتابو، ترجمة بوعلي ياسين، دار الحوار للنشر، ط1، اللاذقية، سوريا، ص.23.

خمسون حارسا مسلحا كسوتهم وقمت بنفقاتهم، وكان منظرهم كفيلا بتثبيط همم اللصوص الذين يعيثون في الطرق فسادا. وتوقفت ثلاث مرات، إحداهن أمام مدرسة أبي إنانية [البوعنانية]، والثانية في صحن مسجد الأندلسيين، والثالثة في شارع الخزافين بجوار السور لأرشَّ على المتسكعين بضع حفنات من الذهب جانيا في المقابل المدائح والهتافات."[38].

تحرر حسن وصار، بإمكانه الآن، أن يسلك الطريق التي توصله للثروة، تاركا خلفه قلق الطفولة وأوجاعها.

هذا النفي لمدة سنتين، لا يمكن، بطبيعة الحال، مقارنته بالنفي الدائم للمجموعة المسلمة من إسبانيا. فقد كانت حكاية المنفى من هناك تبدو لحسن نداء خرافيا، لأن طريق المنفى لا تنتهي أبدا.

أما بخصوص الحدث الذي ينهي هذا "الكتاب"، أي الحريق الأكبر الذي دمر تمبكتو، باعتبارها أقدم مركز لتجارة المسلمين وتعليمهم، يؤتى بها لإنهاء هذا الجزء من حياة حسن بشكل نهائيّ.

6- كتاب القاهرة: الصبابة

يمتد هذا الجزء من حياة حسن، موضع الوصف والتذكر في كتاب القاهرة، من سنة 1513 إلى سنة 1519، أي فترة الشباب الممتدة عمليا ما بين الخامسة والعشرين والواحد والثلاثين سنة. وتحليلنا لكتاب القاهرة سيقوم على النموذج الحكائي المتكون من المراحل الثلاث الآتية:

- أولا: ولع حسن بمدينة القاهرة؛
- ثانيا: دسيسة سلطان القسطنطينية والخوف من وقوع الكارثة؛
- ثالثا: نفي حسن.

كما سيكون من واجبنا أن نولي عناية كبرى لسبب اهتمام حسن بالمأساة التي ألمت بالقاهرة، وجعلت نهاية لحكم المماليك، واعتبار ما وقع عقابا سماويا.

علمنا، مع نهاية الكتاب السابق (كتاب إفريقيا)، أن حسن غادر فاس بأمر من السلطان لمدة سنتين؛ غير أنه بقي مرتاح البال، لا يعدُّ نفيه عقابا، بل عده فرصة سانحة لجمع المال والإثراء في قلب الثقافة العربية والإسلامية.

ما يميز مشاعر حسن، في هذه المرحلة من حياته، الولع والصبابة. فلمّا بلغ القاهرة كتبَ قائلا:

"...كنت على يقين من أنه بعد العاصفة التي أتلفت ثروتي ستنفتح لي في هذا البلد من مصر حياة جديدة مكونة من أهواء وأخطار وأمجاد"[39].

ونظرا لشغفه الشديد بالحياة وامتلاء جوانحه أملا، عدَّ حسن نفسه" كالعاشق الذي أضناه أن ينام ليلة بعد ليلة على بعد أذرع من عشيقته"[40]. لقد سكنته اللذات وتملكته الرغبة في أن يقع فريسة للحب، وأن يحيا الحياة كاملة في هذه المدينة المفعمة جاذبية وشغفا:

" أحسستُ بأن تلك المدينة كانت مدينتي، وشعرتُ لذلك برغد عارم. فما هي إلا بضعة أشهر حتى كنتُ قد أصبحتُ من أعيان القاهرة، وغدا لي مُكاريّ وفاكهانيّ وعطّاريّ وصائغيّ وورّاقي وأعمال مزدهرة وصلات بالقصر ومنزل مطل على النيل. وخُيّل إليّ

[38] ليون الإفريقي، صص.226-227.
[39] نفسه، ص.236.
[40] نفسه، ص.245.

أني بلغتُ واحة الينابيع الباردة"[41].

استقرّ حسن بمدينة أحلامه وأحسن مسكنه. وقع في غرام نور، الأرملة الشركسية؛ غير أن الخطر صار يتربص به، فنجل نور كان ابن أخ سليم ومنافسه، وهذا الأخير هو السلطان التركيّ وحاكم الدولة العثمانية بالقسطنطينية.

وهكذا وقع حسن صريع الغرام، تماما كما وقع أبوه محمد في حب وردة المسيحية؛ غير أن هذا الحب كان محفوفا بالمخاطر. ومع ذلك فقد عبّر عن رغبته في الزواج من نور مسلما أمره لبارئه" وعلى كل حالٍ، فإن الخالق هو الذي فطر هذه المرأة بذلك الجمال وهو الذي وضعها في طريقي"[42]. انتبه حسن إلى المأزق الذي وضع نفسه فيه؛ غير أنه عدَّ ذلك، كما جرت العادة، جزءا من قدره، وعليه فكلٌ مصادفٌ قدره. استهل حسن مرحلة جديدة من حياته، وقرر أن يكوّن أسرة رفقة نور، بالرغم من توزعه بين حب نور وقلقه من العواقب الشخصية والسياسية لهذا الزواج.

تنامى ولع حسن بنور وازدادت حرارته، رغم أنه كان في عين العاصفة حيث تكثر الدسائس والعلامات المقلقة التي تشي بوقوع الأسوأ: الطاعون يحصد الأرواح، اعتلال عين السلطان، وهي علامة على أن الأمور ليست على ما يرام.

وإذا كان الضعف وغياب الحزم، من صفات السلطان، في كتاب غرناطة، مما نجم عنهما عواقب كارثية على الشعب؛ فإننا في كتاب القاهرة نجد أن ضعف سلطان القاهرة ومرضه أضحيا علامتين دالتين وصريحتين، في نظر القاهريين، على غضب إلهي واقتراب العقاب. وهنا نجد أنفسنا أمام نفس الحكاية المشكلة من ثلاث فترات، كما في كتاب غرناطة: فترة السرور والبهجة، يليها هاجس العقوبة، وأخيرا النفي.

من خلال هذه المراحل الثلاث، نسج حسن خيوط الصراع القائم بين السلطان ورعيته، مما يجعلنا بعيدين عن مرحلة البراءة التي ميزت ذكرياته في كتاب غرناطة، والقلق الذي طبعه في كتاب فاس. بلغ حسن مدينة القاهرة قبل السقوط، في الوقت الذي كان فيه مرض السلطان قد حسم الأمور، ولم يدع مجالا للشك فيما سيأتي من الأيام: وقوع المصائب. لقد اقترن ولع حسن بمدينته الجديدة وزوجته الجديدة بانهيار القاهرة تحت أعين الجيش العثماني. وامام هذا المنطق القاسي للأحداث سيجبر حسن على قطع كل صلة بنور.

لا شك أن ما حصل، بالقاهرة، درّب حسنا على اعتبار خيانة القائد أمرا مألوفا وثابتا. فمنذ وفاة خاله كان عليه أن يضطلع بدور الشاهد العياني على سقوط غرناطة. بعد مرور عشرين سنة على حيلة أبي عبد الله ضد شعبه، علم حسن، وهو في القسطنطينية، بمكر السلطان سليم الذي أوهم سلطان القاهرة بأنه حليفه غير أنه كان يهيىء، في السر، حربا ضد السلطان والإمبراطورية المملوكية، فهاجم القاهرة واستولى عليها. ازداد قلق حسن ازديادا ملحوظا، خاصة مع الوضع المأساوي لأسرته والقاهرة التي تبنته.

في قلب القاهرة، عاين حسن، وقد شلّه الفزع الأكبر، الأحداثَ الدموية التي أدت إلى سقوط القاهرة ونهاية الحكم المملوكي، ما جعل المشاعر تختلط عليه بين إحساسه بالضعة جراء قطع صلته بنور وروعه الذي حرمه من التفكير الواضح. وقبل أن يزور حسن سلطان القسطنطينية، كان فرحا. وعندما حلّ بالقسطنطينية، أخضع حياته لتقييم صارم، ليقرّر الانفصال النهائيّ عن نور، لأنه تعب من هواجسها، ورغبته في أن يضع حدّا لهذه المغامرة التي تورط فيها. طلق الأميرة التي قررت، هذه المرة، أن تهتم بابنها وتحميه وتسهل له الأمور إلى باحة الحكم.

[41] نفسه، ص.251.

[42] نفسه، ص.257.

أما المرحلة الثالثة، فخصصت لسفر حسن، إذ نُحاط علما بالمصيبة التي حلت به ووضعتْ نقطة نهاية لإقامته بالقاهرة. إنها المرة الثالثة التي أجبر فيها حسن على المضي إلى منفى جديد، مما جعله يستوعب لأول مرة قدرية شرط المنفى. وهكذا وجد نفسه في مواجهة الواقع الحافي والصريح لمعنى النفي، وكان هذا هو الموضوع الحزين الذي سيّج كل حكايات العائلة.

إذا كان حسن قد أدرك معنى مرارة الإهانة والضعة وبؤس مغادرة غرناطة، وعاين مدلول أن يجبر المرء على مغادرة فاس، ففي القاهرة حيث سيفهم معنى الصراع من أجل البقاء وضرورة الفرار، فكان مضطرا إلى الاختيار بين شغفه بنور والواقع المر والخطر الذي يجابهه كل يوم. ولربما صحَّ القول أنّ حسن صار، في هذه اللحظة، يحس بأنه يحمل على كاهله كل هموم الغرناطيين وبؤسهم: تمزق أسرته مجددا وانغماسه في التيار البارد للمنفى.

سعى حسن، بعد ذلك، إلى البحث عن ملجأ آمن بذهابه إلى الحج بمكة؛ غير أنه في طريق العودة سيعتقل على يد مجموعة من قطاع الطرق، عملاء البابا ليون العاشر، ليسجن في روما. هناك سيستعرض أهم محطات حياته فصلا فصلا، وفكر فيما حصل للأسلاف المنفيين جميعهم.

7- كتاب روما: الحكمة

يصف هذا الكتاب حياة حسن في روما، ما بين 1519 و1527، وهي المرحلة التي بلغ فيها سنّ الواحد والثلاثين، وهي قريبة من سن الأربعين. نجد في كتاب روما نفس الحكاية ذات المراحل الثلاث، مع بعض التعديلات الطفيفة. ترفع المرحلة الأولى من قيمة الحكمة وتعلي من شأنها، وهي الفضيلة التي تحلى بها أثناء إقامته بروما. وفي المرحلة الثانية، حكاية النفي، يصف السارد هواجس الخوف والارتياب مما سيأتي ومن المؤامرة التي تنسجها أنامل الباب وسلطان القسطنطينية. وفي الأخير يتم وصف ظروف وملابسات انتقال حسن إلى روما.

في تحليلنا للجزء الأول من كتاب روما، نحن مطالبون بالسعي إلى تبين لماذا ربط حسن قيمة الحكمة بذكراه في روما. سيكون من الأفيد، مبدئيا، أن نلخص، بشكل وجيز، حياة حسن. ولد سنة 1488 بغرناطة، تلقى تعليمه في مسجد فاس. هو مسافر وديبلوماسي ورجل أعمال في إفريقيا. أقام بالقاهرة وحج إلى مكة حينما تم اختطافه. وصل حسن إلى روما سنة 1519 سجينا لدى البابا ليون العاشر. فلأول مرة يجد حسن، العربي المسلم، نفسه في بيئة مسيحية وأوروبية حيث أجبر أهله على اعتناق المسيحية غصبا أو اختيار سبيل المنفى في أوروبا. حينما غادر حسن روما، بعد ثماني سنوات، وضع حدا لترحاله، فلم يسافر لا بوصفه منفيا ولا ممنوعا: فما الذي جرى خلال هذه السنوات الثمانية؟

في روما، التقى حسن برئيس الكنيسة المسيحية، ليون العاشر، والذي أعاد له الاعتبار كونه رجل علم ومعرفة ودين وثقافة. وتحت حماية البابا استعاد حسن لذة النعمة والصلاح اللذين حرم منهما الغرناطيون على إثر سقوط غرناطة. وهكذا وجد الاستقبال الحار لدى البابا الذي كان يهمه تحسين الروابط بين العالمين الإسلامي والمسيحيّ. ففي روما انتهى كابوس المطاردة التي ميزت حياة حسن منذ طفولته.

رأى حسن في البابا ليون العاشر حبر روما الأعظم وأمير النصارى كل معاني الحكمة لأنه كان رجلا خيّرا وأبويا. فمنذ حلول حسن بروما سعى البابا إلى إرساء روابط قائمة على التقدير والاحترام. وعلى الرغم من وضع حسن بوصفه مختطفا لدى البابا، فإن هذا الأخير كان يؤكد دوما:

" إن رجلا يملك الفن والمعرفة هو دائما على الرحب والسعة عندنا، لا بوصفه خادما بل بوصفه محميا. والحقّ أن قدومك إلى هذا المنزل قد تمّ خلافا لإرادتك وبوسائل لا يمكننا أن نقرّها. بيدَ أن العالم مخلوق هكذا بحيث كثيرا ما تكون الرذيلة ساعدَ الفضيلة، كثيرا ما تتمّ أجلّ الأعمال لأسوأ الأسباب، وأسوأ الأعمال لأجلّ الأسباب. وعلى هذا لجأ سلفنا البابا يوليوس إلى الفتح لتزويد كنيستنا بملكيّة تشعر فيها بأنها في أمان..."[43]. استثمر حسن هذا الدور، طالبا وأستاذا، لهذا نجده، بعد مرور سنة، لا يحتفظ بشيء من أمر اختطافه أو مرارته أو استيائه[44]:

" وعندما قابلت البابا بعد أسبوع كان قد حضّر لي برنامجا حافلا: سوف أقسّم وقتي بعد اليوم بين الدراسة والتعليم. فسيعلمني كاهن اللاتينية، وآخر التعليم المسيحيّ، وثالث الإنجيل واللغة العبرية؛ ويتولى كاهن أرمني إعطائي درسا في اللغة التركية، في كل صباح. وكان عليّ أن أعلّم بدوري سبعة طلاب اللغة العربية. وسأتقاضى عن هذا العمل أجرا مقداره" دوكا" ذهبية في الشهر. ومن غير أن أكون قد عبّرت عن أدنى احتجاج اعترف وليّ نعمتي ضاحكا أن الأمر كان صيغة ملطّفة عن الأشغال الشاقة، مضيفا مع ذلك أن هذا البرنامج يعبر عن حماسة حيالي. وشكرتُهُ ووعدته ببذل ما في وسعي كيلا أقصر في استحقاق فضله"[45].

تميزت روابط الباب بحسن بالاحترام المتبادل؛ ولأن البابا وجد في حسن معاني الثقافة، نظرا لمعرفته بأخلاق العالمين، فقد صار يفشي له بعض مخاوفه بخصوص مستقبل الكنيسة. وكان لحدث تعميد حسن أثرٌ كبير في تتويج العلاقة الطيبة بين الرجلين، إذ منحه البابا اسما مسيحيا يشمل الاسمين الشخصيين (يوحنا، ليون) واسم عائلته المهيبة آل ميدتشي وذلك في شهر يناير 1520[46]. بل عده ابنا له:

"وأنت يا ابننا الحبيب، أنت يا يوحنّا–ليون الذي أشارت به العناية الإلهية بين جميع الناس..."[47]

يعد استقبال البابا لحسن، العربي المسلم، داخل أسرته الصغرى والكبرى (الكنيسة)، حدثا ذا دلالات قوية، زيادة على الهدية التي قدمها له البابا ممثلةً في أول كتاب دعاء الأيام الذي طبعت منه نسخة بالعربية، مما يشي بعمق الروابط القائمة بين الطرفين. وفي ذلك قال حسن مفصحا عن اضطرابه، إثر تلقيه الكتاب المسيحي المطبوع باللغة العربية:

"والله لقد أحببته منذ تلك اللحظة على الرغم من الاحتفال الذي فرضه عليّ قبل قليل. فلأن تهتز مشاعر رجل بهذا النفوذ، وبهذا الإجلال من نصارى أوروبا والبلاد التي خارجها، لرؤية كتاب صغير بالعربية وقد خرج من محترف طبّاع يهوديّ، فذاك ما بدا لي جديرا بخلفاء ما قبل عصور الانحطاط كالمأمون بن هارون الرشيد تغمدهما الله برحمته."[48]

لقد رأى حسن في البابا ليون العاشر كل الفضائل التي حرم منها أبوه. نظم البابا عرسا يليق بمقام حسن الذي اقترن بمادالينا،

---

[43] ليون الإفريقي، ص.314.

[44] ليون الإفريقي، ص.316–317

[45] نفسه.

[46] آل ميدتشي هم عائلة من التجار صاروا أصحاب أبناك، منذ 1397، تحولوا إلى أمراء بمدينة فلورنسا الإيطالية. بسطوا حكمهم على المدينة مع جان دو ميديتشي الذي ولاه سيد فلورنسا رئاسة السلطة التنفيذية. وقد تميزت عائلة الميديشيين بتقلبات كثيرة أهمها نفي كوسمي دو بيتشي(1389–1464) ثم عودته لبسط سلطته على الجزء الأكبر من توسكانيا. وكانت نهاية الميديشيين على يد الإمبراطو الفرنسي شارل الثامن، ولم يتبق منهم إلا فرع صغير تحالف مع الجمهوريين وحمل اسم بوبولانو. ومن فروعهم الذين تولى البابوية ليون العاشر (1475–1521) وكليمن السابع (1478–1534) وليون الحادي عشر (1535–1605):

- Jacques Heers (2008), Le clan des Médicis. Comment Florence perdit ses libertés (1200–1500), Paris, Perrin.

[47] ليون الإفريقي، ص.320

[48] نفسه، ص.321.

غرناطية اعتنقت، مثل حسن، الدين المسيحيّ. وجد حسن فيها كل سمات الثقافة واللغة والأرض التي ضاعت منه منذ واحد وثلاثين سنة خلت. قال حسن واصفا زوجته:

"فقد كانت تتفوق على جميع نساء رومة فتورا في المشية والصوت، وكذلك في النظرة التي كانت غازية ومستسلمة للألم في آن. وكان شعرها أسود حالكا من ذلك السواد الذي تعرف الأندلس وحدها كيف تصفيّة بكيمياء من الظلّ البارد والأرض المحروقة. وبانتظار أن تصبح امرأتي كانت قد أصبحت أختي، وكنت قد ألفتُ أنفاسها"[49].

تزويج البابا لحسن بماداليننا المشابهة لأصوله، يعكس قلقه بخصوص مستقبل محميّه الذي كان عازما على الرحيل[50]، لهذا رأى حسن في لطف البابا وحكمته حجّةُ الثاني؛ فإذا كان حج حسن إلى مكة قد أورثه السكينة والهدوء، فإن هذا الحج الثاني لمدينة المسيحيين قد محا آثار عار النفي وأحيا هوية حسن العربية.

أما المرحلة الثانية، من هذه الحكاية، فطبعت نفس حسن بالخوف من وقوع الشر وحصوله. فبعد تجربة النفي التي عاناها حسن، في غرناطة وفاس والقاهرة، وجد نفسه في عين العاصفة، عاصفة الصراعات الدينية والسياسيّة. فحينما وصل حسن إلى روما، سنة 1519، كانت التهديدات تحيط بالمدينة من كل حدب وصوب. داخليا، كانت الكنيسة مقسمة، على إثر حركة مارتن لوثر التي كانت ترفض رفضا باتّا سلطة الكنيسة ووصايتها على الشؤون الداخلية لألمانيا. فقد انتقد هانز بابا الكنيسة ووصفه بأنه أشقر مترهل، لامع وعنيد، وتساءل:

" ما نفع البابا؟ وما نفع الكرادلة؟ وأي إله يعبد في مدينة رومة هذه المنصرفة إلى بذخها ولذاتها؟"[51]

وهو ما سيفتح عينيّ حسن على عذاب السكان وبؤسهم حيث يضحون من أجل الحفاظ على امتيازات القساوسة، لهذا شكا هانز أمره لحسن:

" أردتُ أن يبقى ماثلا لعينيك على الدوام مشهدُ البؤس هذا عندما ترى كيف يعيش أمراء الكنيسة، جميع أولئك الكرادلة الذين يملك كل منهم ثلاثة قصور يتنافسون فيها جاها ومجونا ويقيمون وليمة إثر وليمة منْ اثني عشر طبقا من السمك، وثمانية أطباق من السَّلَطَة، وخمسة أنواع من الحلوى. والبابا نفسه؟ أرأيته يعرض أمام الناس بفخر الفيل الذي أهداه له ملك البرتغال؟ أرأيته ينثر قطع الذهب على مُهرّجيه؟ أرأيته يصيد في أرضه الشاسعة في "ماليانا" منتعلا حذاءين طويلين من الجلد، مخيّلا وراء دبّ أو خنزير برّي وحوله ثمانية وستون كلبا؟ أرأيت صقوره وبُزاته المجلوبة بأغلى الأثمان من قندية وأرمينية؟"[52]

أما صورة الخطر الآخر الذي يتهدد المدينة فمصدره ليون العاشر نفسه. تصوره للخطر هو ما يفسر سبب توريطه حسن في الصراع المسيحيّ الإسلامي. لقد توسّم ليون في حسن صورة الموريسكي المتعلم رجل فن ومعرفة، شخص يمكنه أن يساعده على تحقيق مآربه: تعليم اللغة العربية لسبعة قديسين، وفي المقابل تلقي الأوامر باللاتينية والتركية والعبرية وقراءة الإنجيل وحذق التعليم المسيحي بغرض الاستعداد للعمودية. ونظرا لعلم ليون العاشر بالمخاطر التي تتهدد الكنيسة، أشرف البابا على اختطاف حسن وتربيته كي

---

[49] نفسه، ص.330.

[50] نفسه، ص.321:

"ورأيت في عينيه أنه يعلم أنني سأرحل ذات يوم. وبدا من التأثر بحيث لم أتمكن من منع دموعي أن تسيل. ونهض. وانحنيت لتقبيل يده، فضمني إليه بقوة ضمّة أب حقيقي".

[51] نفسه، ص.319

[52] نفسه، ص.322

صبح سفيرا عربيا ومسيحيا، قادرا على فهم لغة السلطان العثماني ونواياه.

وفي مجرى أول لقاء بين الرجلين، لم يتأخر ليون العاشر في إحاطة حسن بالوضعية غير المحصنة لروما. وهكذا نسج البابا لحسن روابط متينة لروما، مما جعل مصيره شديد الارتباط بمستقبل المدينة. فمع موت ليون العاشر حرمَ حسن من حاميه الطيب، أما ما جعل حياة حسن تصبح صعبة، فكان مجيء وريث عرض البابا، ادريان، وهو رجل كان معارضا لوجوده بين أحضان الكنيسة. فهذا العربي غير الحليق يمثل كل الخطر الذي يهدد سلطات الكنيسة، مما دفع أدريان إلى حبس حسن بهدف فرض هيبته على الرهبان، وإيجاد حلول للأزمات المزمنة الداخلية للكنيسة، فعبّأ جيشه لخوض "حرب صليبية" ضد الأتراك. كثف جهود محاكم التفتيش، بينما واصل ملك فرنسا والإمبراطور شارل كوينت هجوماتهما من إيطاليا ضد البابا.

في الجزء الثاني، من حكاية روما، اقتضت الحبكة أن تتقوى صلات البابا أدريان بسلطان القسطنطينية مما ورط حسنا في مجريات الأحداث؛ إذ يكلف هذا الأخير بأمور سفارة الكنيسة. ذهب حسن إلى باقية حيث التقى نظيره التركي. وكانت مفاجأته كبيرة حينما اكتشف أن السفير العثماني ليس سوى صديق طفولته وزوج أخته مريم، هارون. ولما جاءت اللحظة الحاسمة، واستفرد ببعضهما البعض، أفشيا السرّ الخفيّ المحرك لكل طرف على حدة. أخبر هارون حسنا بأن الخلاف بين الإمبراطوريتين لا يتعلق لا بالدين ولا بالسلام، وإنما يتصل بأن" لا الواحد ولا الآخر يريد أن تنبسط راية إمبراطورية شارلكان على أوروبا بأسرها، ولا على بلاد البربر"[53]. وهنا سيفهم حسن قول هارون بشكل واضح:

"أعلم أن الذي يفرق بين القسطنطينية وروما، وبين القسطنطينية وباريس، هو الدين، وأن الذي يقرب هو المصلحة، نبيلة كانت أو خسيسة. لا تحدثني عن السلام ولا عن الكتاب لأن الموضوع ليس هذا، وليس هذا ما يفكر فيه أسيادنا"[54].

كشف هذا اللقاء للصديقين بأن الأمر لا يتعلق سوى بمناورات السياسيين، الشيء الذي أدى إلى تغيير نظرة الرجلين إلى العالم. يجد حسن نفسه في وضعية مختلفة، حيث لم يعد يشعر بأنه ضحية خيانة أو غضب القائد؛ فلأول مرة ينكشف الحجاب عن حقيقة السلطة والسر الذي يمنع الدول من السقوط. منذ ذلك التاريخ، لم تعد السلطة أمرا مقدّسا، وهو ما سيضطر حسنا إلى الامتناع عن المشاركة في أمور الباب، وقرر أن يسير في طريق يختطه بنفسه.

نجد في المرحلة الثالثة من حكاية روما، وصفا لرحيل حسن، فكانت تلك أول مرة يرحل برغبته الخاصة. حصل رحيل حسن في الوقت الذي أدرك خطورة الأوضاع في محيط روما، حيث تحالف جيش الإمبراطور شارل مع عشرة آلاف ألماني. وفي المقابل هاجمت الجيوش التركية هنغاريا، في حين احتمى البابا بأسوار القصر بسان آنيج، محتميا من هجمات جيش شارل كوينت، ولهذا سيتذكر حسن ما واجهته عائلته من مخاطر، ففهم أن مكوثه في روما الآن، خطر محدق:

"كنتُ عاجزا عن المشاركة في هذه الحماسة المجنونة لفرط ما كانت محفورة في ذاكرتي أيام غرناطة الأخيرة عندما كان أبي وأمي وسارة وكل حشد المنذورين للمنفى مقتنعين بأن الخلاص كان مؤكدا، وعندما كانوا يتعهدون في أنفسهم احتقارا جماعيا لقشتالة المنتصرة، وعندما كانوا يرمون بالريبة كل من تسوّل له نفسه الارتياب بوصول المعونات الوشيك. وإذ كنت قد تعلمت درسا من محنة أهلي فقد تعلّمت أن أحذر من المسلمات. وحين يتجمّع كل الناس حول رأي واحد أهرب؛ فالحقيقة هي بالتأكيد في مكان آخر"[55].

[53] نفسه، ص.363.

[54] نفسه، ص.363.

[55] نفسه، ص.378.

هنا ستنهال الذكريات على حسن، وستمر أمامه كل الأحداث التي كانت سببا في نفي العرب منذ أربعين سنة خلت. تذكّر حسن حكاية أمه حينما تسبب الفيضان في خسائر كبيرة. هنا سيدرك أن طريق المنفى محفور على جبهة حكايات العائلة إلى الأبد، وأن جيلا جديدا سيواصل طريق المنفى.

- **خاتمة**

إذا ما حاولنا تعرف هوية الحدث المصيري والحاسم الذي ألهم حسن مشروع كتابة مذكراته، فهناك وضعيتان تم سردهما في حكايات العائلة؛ فقد وجد حسن نفسه، من جهة أولى، أمام مواجهات ومناظرات عمومية سبقت سقوط غرناطة. ومن جهة أخرى، تعرف حسن الوضعية التي أصبحت فيها الدولة فاشلة وأضحت هدفا لحروب مدنية وهجومات خارجية. بالإضافة إلى المحن التي عاشها حسن في المدن الثلاث، مما حثه على العودة إلى هذين الثابتين المميزين لمصير قومه: سقوط النظام ونفي العرب. ومع مرور الوقت، استقر رأي حسن على ضرورة كتابة هذه المذكرات بهدف استخلاص العبر من حكايات العائلة ومن تجاربه الخالصة. أصلح حكايات الجيل السابق وحاول أن يفهم، بشكل أفضل، الرسائل التي تدل عليها، وهي المهمّة التي تحملها، في الوقت الذي اقترب من سن الأربعين. فكانت أول مرّة أفصح فيها حسن عن رغبته في الكتابة حينما شارك في مسيرة قوات السلطان بالقاهرة. ووسط الرعب والدماء استقرّ ذهنه على أن الوقت قد حان لفعل ذلك، خاصّة أن الأمل الوحيد لنقل الحقيقة، بخصوص هذه الأحداث المرعبة، هو أن يدوّن شهادته بخصوص ما جرى. ولكن، في روما، حيث سيقرر حسن كتابة قصة حياته، بينما كانت المدينة المقدسّة تحمي نفسها من هجومات الإمبراطورية الألمانية والتركية. واثناء فرار الأسرة من حروب روما، شرع حسن في تأليف حكايته.

وعليه، فقد تأكدّ لنا أن الحكاية التي صاغها حسن بخصوص سقوط غرناطة تستلهم حكاية النفي من جنة عدن. وبذلك، فإن هذه الحكاية لها سياق مشابه في الديانات السماوية الثلاث. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نلاحظ وجود فكرتين كونيتين تتمخضان عن قصة الأصل: فكرة الرحيل التي لا رجعة فيها، وفكرة ضياع الفردوس المفقود. ولعلّ احتكام الحكايات الثلاث إلى البنية الثلاثية تخبرنا عن الذاكرة الجمعية، فنحن نعلم، تبعا لأطروحة فنتريس ووشيكام، أن الذاكرة الجمعية تدبرها بنية الحكاية وتتضدها الصور أو التيمات. نلاحظ أن الكتب الثلاثة، من حكاية حسن، هي حكايات عائلية تمّ تجميعها في كتاب غرناطة الذي حدّد بنيتها. ويستند هذا التشابه بدوره إلى تشابه رئيس الدولة وأب العائلة. وهكذا، وجدنا أن الكتابين الأوليين يرويان ميلاد حسن، في غرناطة وتربيته في فاس، مع وجود خلفية تتصل بضياع الأب وسقوط السلطان وانهيار صلات الأب بالعائلة التي كانت مجرد صدى لسقوط السلطان والاضطرار إلى النفي. وفي الكتابين الثالث والرابع، نجد أنفسنا بإزاء بحثين متوازيين بخصوص عالم السياسة؛ فالأوّل يقدم لنا وصفا لأحوال المسلمين المنقسمة وهم بالقاهرة يواجهون الهجومات. أما البحث الثاني، فيصف الانقسامات في العالم المسيحيّ والهجومات التي كانت تُشنّ ضدّ الكنيسة بروما. فإذا كان الكتابان الأولان قد بنيا حول سقوط السلطان والأب، فالكتابان الأخيران يعالجان أزمتين حضاريتين؛ تلك التي تعتمل داخل قلب العالم الإسلامي والأخرى التي تبلبل العالم المسيحيّ.

تسعى شهادة حسن، في رواية ليون الإفريقي، لأمين معلوف، سعيا حثيثا إلى ربط صور حكايات الماضي وتيماته من خلال تجديد الذاكرة الجمعية للإنسانية.

- **المراجع:**
- **باللغة العربية**

1- أشكروفت بيل وآخرون (2006)، الرد بالكتابة؛ النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان.

2- زهير سوكاح (1998)" الهوية بين الكتابة التاريخية والذاكرة الجمعية نحو نموذج ذاكراتي فلسطيني"، مجلة رؤى تربوية، العدد 27.

3- زهير سوكاح (2020)،" حقل دراسات الذاكرة في العلوم الإنسانية والاجتماعية: حضور غربي وقصور عربي"، مجلة **أسطور**، العدد11 (كانون الثاني/يناير).

4- فريزر جيمس (2014)، الغصن الذهبي، دراسة في السحر والدين، ترجمة أحمد أبو زيد، ط2، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر.

5- سيغموند فرويد (1983)، الطوطم والتابو، ترجمة بوعلي ياسين، دار الحوار للنشر، ط1، اللاذقية، سوريا، ص.23

6- عبد الأحد السبتي (2012)، التاريخ والذاكرة، أوراش في تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب.

7- عبد الله جمال الدين (1996)، تاريخ المسلمين في الأندلس، شركة سفير، القاهرة، مصر.

8- عبد الرحمن علي حجي (1983)، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.

9- محمد حبيدة (2015)، بؤس التاريخ، مراجعات ومقاربات، دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب.

10- محمد عبد الله عنان (1987)، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

11- معلوف أمين (1998)، الحروب الصليبية كما رآها العرب، تر. عفيف دمشقية، ط2، دار الفارابي، بيروت، لبنان.

12- معلوف أمين (1997)، ليون الإفريقي، ترجمة عفيف دمشقية، ط3، دار الفارابي، بيروت، لبنان.

13- ندوة التاريخ والذاكرة (2001)، منشورة في العدد 01، مجلة البحث التاريخي، 2003.

- **باللغات الأجنبية:**

14- « Amin Maalouf : autobiographie à deux voix », Entretien avec Egi Volterrrani, p.18(1-13). Consulté le 21 janvier 2021 http://webperso.easyconnect.fr/barrire/maalouf/biographie.html

15- Benichou François (1989), « Amine Maalouf : Ma patrie, c'est l'écriture », Le Magazine littéraire, Nov : pp.114-115.

16- Fentress James and Wickham (1992), Social Memory. Oxford, UK, Cambridge, Arass ; Blackwell.

17- Hargreaves, Alec (eds), (2005), Memory, Empire and Postcolonialism : Legacies of French Colonialism. Lanhan, Md : Lexiagton Books

18- Jacques Heers (2008), Le clan des Médicis. Comment Florence perdit ses libertés (1200-1500), Paris, Perrin.

19- Jean Descoles (1970), Les Grandes heures de l'Espagne, Paris, Chapitre IX, « L'Heure musulmane », pp.6784, Chapitre VI, « L'Heure triomphale », pp.107-121.

20- Jessie l. Weston (1957), From Ritual to Romance, N.Y, Doubleday Ancha.

21- Jocelyn Doray and Julian Samuel (1993), The Raft of the Medusa, Montréal : Black Rose Books.

22- Maurice Halbwachs (1997), La mémoire collective, Paris, Albin Michel (1ère Edition PUF, 1950).

23- Najib Redouane (2006), « Renaissance, Memory, Identity » in « Origine » by Amin Maalouf in Neohelicon, 33 (1), pp.29-39.

24- Nora Pierre (1997), Les lieux de la mémoire, 4 Vols, paris : Gallimard.

25- Rina Jureidini, « Entretien avec Amin Maalouf », La Revue du Liban, 3 Aout 1996, Consulté le 25 Janvier 2021 http://www.rdl.com.lb/1996/1903/maalouf.htm